الحرب القادمة... قادمة؟

لبنان لم يعد استثناء

معين رباني*

تشير كلُّ الدلائل المتوافرة إلى أنّ اندلاع الحرب الإسرائيليّة ـ اللبنانيّة المقبلة ما هي إلا مسألة وقت فحسب. وعلى الرغم من أنّ احتمال بدء الحرب من جانب اللبنانيين أو غيرهم من العرب لا يُمْكن استبعادُها، فإنّ السيناريو الأرجح هو أنّ إسرائيل هي مَنْ سيُشعلها.

لقد برهنَ لبنانُ، على امتداد العقديْن الأخيريْن، ولا سيّما منذ عام 2006، أنّ الزمن الذي كانت فيه إسرائيلُ قادرةً على محو أعدائها، أو تركيعِهم، قد ولّى إلى غير رجعة. وتكمن مشكلة إسرائيل في أنّ لبنان لم يعد الاستثناءَ الذي يُثبت القاعدة، بل غدا تجسيدًا لقاعدة جديدة.

لقد أشار البعضُ إلى أنّ عجزَ إسرائيل عن تحقيق نصر حاسم [ضدّ حزب الله] يعني أنها لن تهاجمَ لبنانَ، وأنها إنْ أرادت فلن تستطيع ذلك. غير أنّ هذا القصورَ قد يكون تحديدًا السببَ الذي سيدفعها إلى مهاجمة لبنان. إنّ خيار إسرائيل البديل من الحرب، ألا وهو السماحُ لتحدٍّ استراتيجيٍّ صاعدٍ [إيران] بأن ينمو بلا عوائق، وبأن يشجّع (وربّما يساعد) آخرين في المنطقة على طرح تحدّيات مماثلة، إنما هو بديل يساوي موتَ إسرائيل بألف طعنة. بيْد أنّ تدميرَ حزب الله ليس على قائمة أهداف المخطّطين الإسرائيليّين، إلا إذا فقدوا صوابهم نهائيًا. الأرجح أنّ الجيش الإسرائيليّ سيُكلف بمهمّة إضعاف قدرات الحزب وقيادته السياسيّة وبنيته التنظيميّة التحتيّة إضعافًا كبيرًا. ولهذا فإنّ الجيش سيسعى، بالقوّة الكاسحة، إلى إلحاق أكبر حجم ممكن من الدمار في أقلّ وقت ممكن.

ما يهمّ إسرائيلَ أكثر ممّا سبق هو أن تَشلّ قدرةَ حزب الله على إعادة بناء نفسه بعد الحرب، بحيث تحول دون أن ينهض أقوى ممّا كان، كما حدث بعد عام 2000 ومجدّدًا في أعقاب حرب 2006. ولتحقيق ذلك ستبذل إسرائيلُ قصارى جهدها لمحو الدولة اللبنانيّة، والجيشِ اللبنانيّ، والبنيةِ التحتيّةِ المدنيّةِ اللبنانيّة، وكلّها اعتادت إسرائيلُ وصفَها روتينيّاً بأنها امتداد لحزب الله.

> قوة حزب الله العسكرية، وازدياد حزم الجيش اللبناني، سيعجلان في وقوع الحرب بدلا من أن يؤجلاها

إنّ التسبُّب المتعمَّد في وقوع عدد هائل من الضحايا المدنيّين أمرٌ ينبغي أن يكون متوقّعًا، لا لأنّ هذا هو أسلوبُ إسرائيل في الحرب فحسب، بل لأنّ المخطّطين الإسرائيليّين يَعتبرون أيضًا أنّ ذلك ــ مترافقًا مع تدمير لبنان ـ أمرٌ حاسمٌ في التعجيل بقيام معارضة شعبيّة [لبنانيّة] منظّمة ضدّ حزب الله. وليس أقلّ من ذلك أهمّيّةً أن تَعتبر إسرائيل أنّ هجومًا شاملاً على الدولة والمجتمع اللبنانيّيْن هو أكثرُ السياسات «الوقائيّة» فعّاليّةً ضدّ مَنْ لا يكفّ عن التململ والإزعاج في أمكنة أخرى من المنطقة، شعوبًا وأنظمةً.

أمّا إذا كان هذا الهجوم الإسرائيليّ سيتمتّع بموافقة أميركيّة مسبقة، أو إذا كانت واشنطن ستشجّع عليه كما فعلتْ عام 2006، فذلك أمرٌ لا أهميّة له تقريبًا. ذلك أنّه منذ اللحظة الأولى التي يتعرّض فيها أولُ مواطن عربيّ للإصابة والتشويه جرّاء إطلاق إسرائيل النارَ من أسلحتها الأميركيّة الصنع، ستنبري «النخبُ» الأميركيّة مهلّلة كالمراهقين في مهرجان لموسيقى الروك مطالبةً بالمزيد والمزيد. وكما حدث في عام 2006 فإنّ هذه النخب لن تُخْرسَها إلا الهزيمة.

إذا كان هذا التشخيص معقولاً، فإنّ قوّة حزب الله العسكريّة، وازديادَ حزم الجيش اللبنانيّ، سيعجّلان في وقوعَ الحرب بدلاً من أن يؤجّلاها. والحقّ أنّ لبنان لا يبدو قادرًا على إحباط النوايا الإسرائيليّة، إلا إذا أحيا بشير الجميّل من بين الأموات ونصّبَه رئيسًا للجمهوريّة وعيّن حكومةً جديدةً من أشخاص اتُّهموا أخيرًا بالتجسّس لحساب إسرائيل. كما أنّ التزامات سوريا (وإيران) بالدفاع عن لبنان ـ إنْ كانت هذه الالتزاماتُ جدّيةً فعلاً ـ ستزيد على الأرجح، بدلاً من أن تقلّل، من حوافز إسرائيل على التعامل [بقسوة] مع مشكلتها الاستراتيجيّة المتنامية.

لكنْ، مثلما أنّ إسرائيل تتّجه نحو الحرب بسبب فشلها في إعادة بناء لبنان سياسيًا (وبخاصّة عبر مبادرات تيري رود ـ لارسن السامّة)، فإنّ خيارَ لبنانِ الأوحد للحؤول دون نشوب نزاع مسلّح قد يكون في معالجة مشكلة أهمّ، وهي: حصانةُ إسرائيل وعدمُ خضوعها للمحاسبة عند تعاملها مع العرب. غير أنّ هذا مشروعٌ بعيدُ الأمل ولن يؤتي ثمارَه على الأرجح قبل أن تطوي الحربُ أوزارها. وإذا كانت أعمال العداء محتومةً فعلاً فإنّنا نأمل أن يكون لبنانُ، وأن يكون الآخرون الذين يدركون الأخطار المحتملة، قادرين على القيام بما يرسّخ عدم جدوى الحرب في وعي الإسرائيليّين لأجيال قادمة!

* أحد محرّري مجلة «ميدل إيست ريبورت»

مقاومون من حزب الله في أحد المواقع الجنوبيّة (أرشيف ـ هيثم الموسوي)

غاية لا وسيلة

نورمن فنكلستين*

إنّ كلّ مهمّة كارثيّة إسرائيليّة تزيد مخاطرَ رميةِ النَّرْد المقبلة. ولقد بات على إسرائيل أن تشنّ هجمةً أكثرَ استعراضيّةً من قبل لكي تعوّض سلسلة إخفاقاتها الطويلة (في لبنان عام 2006، وفي غزّة 2008 ـ 2009، وعلى متن مافي مرمرة ودبيْ 2010،...). ولكنْ يرجَّح أن تركّز أنظارَها على ما هو أكثرُ طموحًا من مجرّد عمليّةِ كوماندوس محدودة ترمي إلى استعادة قدرتها الردعيّة. وإذا كان قادةُ إسرائيل ينظرون إلى غارة عنتيبة بوصفها أنموذجًا لعمليّة كوماندوس متقنة، فإنّهم يَنْظرون إلى حرب حزيران 1967 بوصفها أنموذجًا لعمليّة جيش متقنة.

ولّدتْ عقابيلُ مذبحة الأسطول تشكيلةً جديدةً من القوى في الشرق الأوسط. فقد رفضتْ تركيا أن تُذعنَ للضغط الإسرائيليّ (والأميركيّ)؛ وكانت قبل ذلك قد اصطفت إلى

> أي هجوم إسرائيلي على حزب الله سيجر ردود فعل لن يريد أي عاقل أن يتصور أبعادها

> الافتراض الإسرائيلي هو أنه في حال تصحيح «الأخطاء العملانية» فسيكون تحقيق الأهداف الإسرائيلية أكيدا

جانب إيران، مصوِّتةً في مجلس الأمن ضدّ فرض العقوبات عليها. وسافر بشار الأسد إلى أنقرة لإبداء الدعم السوريّ لتركيا. وذُكِر أنّ حزبَ الله تزوّدَ بصواريخ سوريّة. «إنّ محورَ تركيا ـ إيران ـ سوريا ـ حزب الله ـ حماس هو القوّة الصاعدة، ومحور مصر ـ السعودية ـ الأردن ـ حركة فتح إلى هبوط» (يوري أفنيري). في هذه الأثناء تصاعدت الضغوط الدوليّة على إسرائيل لدفعها إلى التفاوض مع حماس، وبدأ الرأيُ العامُّ العالميُّ بالتحوّل ضدّ إسرائيل.

كان لا بدّ لهذه التطوّرات من أن تستحضرَ في إسرائيل ذكرياتِ عشيّة حرب حزيران 1967. فها هي اليومَ «مطوَّقة» من جديد بأعداء يحثّون الخطى لتدميرها، فيما كان العالم «يتخلّى» بأسره عنها. لقد بات الوضعُ اليومَ مثلما كان في عام 1967 تمامًا: مشهدًا راعبًا للإسرائيليّ العاديّ، وجذّابًا للقادة الإسرائيليّين. إنّها، بالمعنى العميق، اللحظةُ المثلى لشنّ ضربة استباقيّة.

لا أساسَ لأن نفترض أنّ جيرانَ إسرائيل ينوون مهاجمتها. لكنّ ذلك ليس هو ما يهمّ إسرائيل. فهي لم ترض، ولن ترضى، أن تقيّدَ حريّتُها في المناورة؛ بل تطالب بأن تكون لها قدرةٌ مطلقةٌ على التصرّف بالوحشيّة والاستهتار اللذين يَحْلُوان لها. ولعلّ قادةَ إسرائيل يَحْلمون الآن بأنْ تستطيع ضربةٌ قاضيةٌ واحدةٌ أن تعيدَ إليها أيامَ المجد التي شهدَتْها بعد حرب حزيران 1967، حين تربّعتْ على الأراضي العربيّة المحتلّة خارج حدودها [عام 48].

الهدف المرجَّحُ الأوّلُ للهجوم الإسرائيليّ هو لبنان، وهو ما تستعدّ إسرائيل بدأب له في الفترة الأخيرة. حتى إنّ أكثر المدافعين عن إسرائيل ابتذالاً، أمثال دانييل كورتزر، السفير الأميركيّ السابق لدى إسرائيل، يُقرّ بأنّ إسرائيل ستكون «على الأرجح» هي المبادِرةَ في حال اندلاع أعمال عدائيّة. وهو يورد تخمينات بأنّ الحرب ستقع خلال الشهور 12ـ18 المقبلة، ويتنبّأ بأنّ الولايات المتحدة لن تَحول دونها أو لن تكون قادرةً على ذلك.

قد تكون ذريعةُ إسرائيل لضربة عسكريّة أولى على لبنان أنّ حزب الله كدّس ترسانةً هائلةً من الصواريخ والقذائف التي تستهدفها. الواضح أنّ الهجوم الإسرائيليّ سيكون صورةً مكرَّرة عن غزو غزّة، ولكنْ على نطاق أضخمَ بكثير. وقد أعلن جنرالٌ إسرائيليٌّ بعيْد غزو غزّة أنّ جيش الدفاع الإسرائيليّ «سيواصل تطبيقَ» عقيدة الضاحية، وذلك بتسديد قوة هائلة إلى البنية التحتيّة المدنيّة «في المستقبل». وفي اليوم الذي جرت فيه مذبحة أسطول الحريّة، أوردتْ «أخبار الدفاع» Defense News المقرَّبةُ من السلطة أنّ هجومًا إسرائيليًا محتملاً على لبنان «سيَشْمل أعمالَ هجوم على البنية التحتيّة الوطنيّة [اللبنانيّة]، وحصارًا بحريًا شاملاً، وضرباتٍ تدميريّةً على الجسور والطرق العامّة»، في الوقت الذي «تنفذ فيه القواتُ البرّيّةُ استيلاءً ضاريًا على الأراضي في ما يتخطّى بكثير نهرَ الليطاني». إنّ جوهرَ العقيدة الاستراتيجيّة الإسرائيليّة، على ما أوضح نائبُ قائد الأركان في جيش الدفاع، هو أنّ على «كلّ جولة جديدة من القتال أن تأتي بنتائجَ أسوأ من الجولة الأخيرة» على أعداء إسرائيل.

لقد أورد محلّلون عسكريون بارزون في هآرتس، استنادًا إلى «معلومات استخباراتيّة قيّمة»، أنّ «حزبَ الله نقل معظمَ مستودعاته ومراكز توجيهه ومخازن صواريخه إلى جنوب لبنان، بعيدًا عن الحقول، وداخل القرى والبلدات الشيعيّة الـ160 في المنطقة». الهدف الواضح وراء نشر هذه المعلومات «الاستخباراتيّة» الإسرائيليّة الأخيرة ليس، كما يدّعي الإسرائيليّون، «تحذيرَ حزب الله»، بل ليبرّروا هجومًا هائلاً آخرَ على مدنيّي لبنان وبنيته التحتيّة المدنيّة، علمًا بأنّ قوّات الأمم المتحدة المتمركزةَ في جنوب لبنان (اليونيفيل) «لم تعثرْ على أيّ دليل على بنية تحتيّة عسكريّة جديدة في منطقة عملها».

كثيرٌ من اللبنانيين يجدون العزاءَ في أنّ الحرب المقبلة لن تكون أسوأ من سابقتها، لكنّ إسرائيل، مهما كان هولُ الدمار الذي ألحقتْه بلبنان عام 2006، «استثنت معظمَ الضواحي السكنيّة والبنية التحتيّة الأساسيّة غير الشيعيّة، مثل قطاع الاتصالات والطاقة والمياه». وقد أخبر وزيرُ الدفاع الإسرائيليّ باراك الواشنطن بوست أنه في حال اندلاع أعمال العداء من جديد «فسيكون مشروعًا ضربُ أيّ هدف يخصّ الدولةَ اللبنانيّة، لا حزبَ الله فقط».

قد تُمْكن المحاجّة بأنّ إسرائيل بعد هزيمتها عام 2006 لن تفتعلَ قتالاً مع حزب الله، ناهيك بأن تجازفَ بمواجهة إقليميّة. غير أنّ إسرائيل لم تسلّم بأنّها لم تعد تمتلك القدرة على توجيهِ ضربة هائلة إلى خصومها، بل هي لا تأخذ في الاعتبار أنّ القوّة الإسرائيليّة المقاتلة اليوم، على ما بيّنتْ مهزلةُ الكوماندوس من جديد، لم تعد كما كانت في السنوات الماضية؛ وأنّ القوى التي تصطف في مواجهتها أشدُّ بأسًا من القوة الناضبة التي هزمتْها إسرائيل عام 67. وإنّه لأمرٌ ذو دلالة أن يتحدّث الإسرائيليّون، بعد كلّ عمليّة فاشلة جديدة، عن أخطاء «عملانيّة»، لا عن أخطاء في المفاهيم؛ والافتراضُ الإسرائيليُّ الضمنيُّ هنا هو أنه في حال تصحيح تلك «الأخطاء العملانيّة» فسيكون تحقيق الأهداف الإسرائيليّة في المرّة المقبلة ممكنًا وأكيدًا.

الافتراض الثاني الخطأ هو أنّ إسرائيل لن تهاجم حزبَ الله إلا إذا ضمنتْ هزيمتَه عسكريًا. لكنّ الواقع هو أنّ السياسة بالنسبة إلى إسرائيل، نقضًا لمبدأ كلاوشفيتس، غالبًا ما تكون حربًا بوسائلَ أخرى. فإذ رَسَخَ في النفسيّة الإسرائيليّة أنّ «العرب لا يفهمون إلا لغةَ القوّة»، فإنّ القادة الإسرائيليّين يَشعرون بدافع دوريٍّ إلى القيام باستعراض كاسح لقوّتهم الناريّة. الحرب عندهم ليست وسيلة إلى غاية؛ إنّها الغاية نفسُها. أحد الأخطاء الرئيسيّة التي يُقال إنّ القادة الإسرائيليّين